مرحلة الاحتواء

جاءت مرحلة الاحتواء بعد مرحلة العقاب التي حاولت فيها أمريكا عقاب مصر/ عبد الناصر بعد صفقة الأسلحة ١٩٥٥ برفضها أن تبيع القمح والأدوية لمصر عندما كانت في حاجة إليهما، كما جمَّدت أرصدتها بعد تأميم القناة، وحاولت أن تضغط عليها اقتصادياً لتغير مواقفها ، واسمرت هذه المرحلة حتى ١٩٥٨ .

يقول هيكل " وجاءت مرحلة الاحتواء إثر مرحلة العقاب . فعندما تخاصم عبد الناصر وخروشوف بشأن الوحدة العربية ودور الشيوعيين في الدول العربية ، رأى الأمريكيون في ذلك فرصتهم السانحة لاسترداد المواقع التي فقدوها.

كانوا قد انسحبوا من لبنان ، كما أن البريطانيين انسحبوا من الأردن ، في خريف ١٩٥٨ ، أي قبيل اندلاع مشاكل مصر مع الاتحاد السوفييتي بسبب محاولات الشيوعيين الاستيلاء على الحكم في العراق. وكان هذا يعنى أنه لم يعد ثمة مشكلات كبرى قائمة بين أمريكا ومصر .

تحسن العلاقات الأمريكية المصرية

وراقب الأمريكيون تخاصم عبد الناصر وخروشوف بعيونهم وآذانهم، وآثروا أن يلزموا الصمت شهوراً ثم بدءوا يسألون الحكومة المصرية همساً إن كان ثمة شيء يمكنهم أن يفعلوه لمساعدة مصر، واستصدروا القانون العام رقم ٤٨٠ الذي مكنهم من إرسال القمح إلى مصر ثم قدموا بهدوء غير ذلك من المساعدات بطرق أخرى .

واستمر الوضع كذلك طوال ١٩٥٩ و ١٩٦٠ حيث ظلَّت الولايات المتحدة تمد مصر بالمساعدات بشكل هادئ وبلا ضجيج كبير. وبدا كما لو كان البلدان يتمتعان بنسمة لالتقاط الأنفاس .

وهكذا تحسنت العلاقة الأمريكية / المصرية في السنوات الأخيرة من ولاية أيزنهاور الثانية فقد سرهم خصام عبد الناصر مع خروشوف ، وتأكدوا أن عبد الناصر ليس شيوعيّاً ، بل إنه ضد انتشار الشيوعية في البلاد العربية ، وما تقاربه من السوفييت إلا مناورة لحصد مزيد من المساعدات الأمريكية دون أن يتعدى الخطوط الحمراء (أمن إسرائيل ومصالح أمريكا الاقتصادية في المنطقة) ، ولم تبخل أمريكا عليه بالمساعدات الاقتصادية التي تضاعفت عن ذي قبل كما أمدته بالقمح الذي هو في أمس الحاجة إليه لإطعام شعبه ولمزيد من التودد لمصر والعرب قللت أمريكا من مساعداتها العسكرية لإسرائيل .

وفي ذلك يقول كوبلاند : " لقد زادت مساعداتنا الخارجية له (لعبد الناصر) في السنتين التاليتين عن أية سنتين سابقتين لهذا زيادة ملموسة كبيرة ، لتأكدنا من التزامه بالمبادئ الآنفة الذكر (أمن إسرائيل ، المصالح الأمريكية الاقتصادية) وإصراره على انتهاجها دون شذوذ أو انحراف .

ولكن ناصراً لم يكن من الموفَّقين ، ولم يكن الحظ له من المبتسمين . لقد سجن نفسه في حلقة مفرغة ما خرج منها ، ولن يكون من الخارجين . قلقت عليه حكومتنا قلق الحبيب على الحبيب ، وشغل بال الأصدقاء ، فلم يغمض لهم جفن ولم يهدأ لهم قرار . أراد ناصر " الاستعراض الكبير " ليكسب به احترام العالم ويربح المساعدات . غير أن للاستعراض الكبير تكاليف ولإبقائه حيّاً مصاريف . وللعالم الخارجي طاقات وأساليب ، فهو عن " الاستعراض الكبير " عازف ولنفقاته غير مستحب . لقد تعطلت عجلات " الاستعراضات الكبرى " عن السير ، وتوقفت محركاتها عن العمل وغاصت بمن عليها في وحول ومستنقعات لن تنجو منها إلا بأعاجيب ومعجزات .

مع انتهاء أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية أخذ الضغط يتزايد على حكومة الولايات المتحدة حتى توقف مساعداتها لناصر . وفي الوقت ذاته شرع الدبلوماسيون الأمريكيون في الدول العربية يعربون عن امتعاضهم من مبدأ أيزنهاور ولم يظهروا له تأييداً أو حماساً . كما أخذوا ينادون بفكرة " القبول بحقيقة وجود ناصر " وأوضحوا في رسائلهم الرسمية إلى وزارة الخارجية " أن العالم العربي في عام ١٩٥٩ لم يعد كما كان أيام لورانس العرب " . ولا يزال سلوك ناصر مع كافة شركات البترول العاملة في بلاده سلوكاً مثالياً وخالياً من الأخطاء والآثام .. مما دعا قسماً غير يسير من أوساط رجال الأعمال الأمريكيين إلى التخفيف من حدة عدائهم لناصر ونزاعهم معه . "[١]

نشر حسنين هيكل مقالة في صحيفة الأهرام معبراً عن رأيه في أن السياسة الخارجية المصرية (وهي المغامرة المصرية في جزيرة العرب وحملات القاهرة الإذاعية ضد الملك فيصل والملك حسين والمضايقات المستمرة للمواقف البريطانية والأمريكية في الشئون العالمية) ليست سوى " توظيف مثمر " للجهد المصري فقد عادت على مصر بمنافع سياسية وأخرى عملية ملموسة ، فحصلت مصر على مساعدات عسكرية من الاتحاد السوفيتي دون أن تخسر المساعدات الاقتصادية من الولايات المتحدة .

وتغاضت الولايات المتحدة عن سلوك عبد الناصر ومراوحته بينها وبين السوفييت ذلك وأرخت الشعرة التي بينها وبين عبد الناصر .

وفي ذلك يقول كوبلاند : " وفَصْلُنا بين مسألة المساعدات الاقتصادية وبين الاعتبارات السياسية قد حاز إعجاب ناصر وقبوله ولم يقصِّر في ذلك وعبَّر لي ناصر عن هذا بنفسه ، ولكنه بقي مرتاباً في أن يكون ذلك هو كل ما نفعله ، ولن يرتاح باله وتهدأ نفسه حتى يقف على كل ما نريده حقاً من وراء علاقتنا معه وما

([١]) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

نبغيه ، وبخصوص مقال هيكل حول السياسة الخارجية الأمريكية المصرية : توظيف مثمر " كاشفني ناصر برأيه فيها (كما كاشف غيري) وقال أنه لا يرى بأساً عليها، سوى أنني علمت أنه عنَّف كاتبها وأنَّبه عليها سرّاً . ومع كل ذلك فقد بقي مُصرّاً على أن علاقتنا معه مازالت تنطوي على أسرار دفينة وتعقيدات بالغة غير مُلمٍّ بها ، ولا واقف عليها ." [1]

السر وراء استمرار المساعدات الأمريكية لعبد الناصر

والأمر في غاية البساطة وليس فيه أسرار دفينة ولا تعقيدات بالغة إن السر وراء استمرار تدفق المساعدات الأمريكية على مصر إن عبد الناصر لم يمس مصالح أمريكا والغرب في المنطقة فقد ضمن لهم أمن إسرائيل فلم يطلق عليها طلقة واحدة، بعد العدوان الثلاثي ، كما أنه لم يمس المصالح الاقتصادية الأمريكية المتمثلة في شركات البترول وغيرها من الشركات التي تعمل في مصر أما فيما يتعلق بالقومية العربية فإن أمريكا كان في مصلحتها أن تخضع السياسة العربية لسياسة عبد الناصر فخير لها أن تتعامل مع رجل واحد يفهم ما تريد الولايات المتحدة في المنطقة ويوافق عليه بدلاً من التعامل مع كل بلد على حدة ، أما شن عبد الناصر حملات إعلامية على أمريكا أو الدول العربية التابعة لها فهذا ما لا يضير أمريكا إذا كانت سياسة عبد الناصر تحافظ على طموحها في المنطقة . أما موقف ناصر من الاتحاد السوفيتي فلم يزد عن تلقيه مساعدات عسكرية دفاعية أقل مما عند إسرائيل من معدات عسكرية هجومية ، وبالنسبة للمساعدات الاقتصادية فهي لا تزيد عن المساعدات الأمريكية له كما أن عبد الناصر سعى ألا تتحول مصر ولا الدول العربية التي تسير في فلكه إلى دول شيوعية تدين بالولاء التام لدولة الاتحاد السوفيتي الدولة الشيوعية الأم بل إنه حارب الشيوعية والشيوعيين واتهمهم صراحة بالعمالة للسوفييت ، وابتداءً من الأول

([1]) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ٣٠٦ ، ٣٠٧.

من يناير ١٩٥٩ بدأ في شن حملات اعتقال طالت جميع الشيوعيين في مصر ، فلا خوف من سياسة عبد الناصر على المصالح الأمريكية في المنطقة.

كما أن خطوط الاتصال بالولايات المتحدة لم تنقطع أبداً عن طريق السفير الأمريكي في مصر أو السفير المصري في واشنطن أو رجال المخابرات الأمريكية أصدقاء عبد الناصر كروزفلت وكوبلاند ... أو رجال عبد الناصر القريبين من الأمريكان مثل : حسنين هيكل، ومصطفى أمين ، وحسن التهامي ، وعلى صبري.

لقد حصد عبد الناصر الكثير من المساعدات الأمريكية والسوفيتية بسبب اتباعه هذه السياسة ولكنه مع الأسف بددها في سعيه الحثيث لتأكيد زعامته للعرب وأفريقيا ودول العالم الثالث ، نعم إن نسبة كبيرة من المساعدات التي حصل عليها ما كان ليحصل عليها لولا تأثيره في الدوائر الثلاث (العربية ، والأفريقية ، الإسلامية) ولكن ما الفائدة من الحصول عليها ما دام ينفق أكثر منها لتأكيد الزعامة وهذا ما أسماه كوبلاند " الاستعراض الكبير " الذي بدد ثروات مصر وغاص بها إلى وحول ومستنقعات.

عبد الناصر وكنيدي

بعد انتهاء ولاية أيزنهاور فاز كيندي في الانتخابات الأمريكية لتبدأ مرحلة جديدة في علاقة مصر بالولايات المتحدة استمرت نحو ثلاث سنوات (١٩٦١ - ١٩٦٣) فبعد شهر من تقلد كنيدي السلطة رسمياً استلم رسالة جاء فيها " من رئيس أفقر دولة في العالم ولكن أعرقها قدماً إلى رئيس أغنى دولة في العالم ولكن أحدثها سناً " .. هزت الرسالة مشاعر كنيدي وتحمس لها كثيراً ، كما أنه أرسل ردّاً عليها بدون تأخير أو تسويف مهَّد الطريق أمام حوار بينه وبين عبد الناصر .

غير أنه مضت شهور عديدة قبل أن يقبل كنيدي اقتراح عبد الناصر إرسال أحد أصدقائه الأُوَل إلى مصر لإجراء فحص دقيق لمصاعب الإدارة ومشاكلها وفي مايو

عام ١٩٦٢ قرر كنيدي أخيراً إرسال صديقه الحميم وأستاذه القديم " إدوارد ماسون " إلى القاهرة ومنذ اليوم الأول لوصوله أخبره عبد الناصر أن له الحق كاملاً في أن يدقق في أمور البلاد وشئونها كما يفعل عبد الناصر نفسه ، كما أن له أن يعرف كل شاردة وواردة دون تحرج أو تكلف حتى يلمس المصاعب كما يلمسها عبد الناصر بنفسه ، وطلب منه عبد الناصر أخيراً أن يطلع على كافة تفاصيل حلول عبد الناصر لمشاكل البلاد وفي ذلك يقول كوبلاند : " أتاح ناصر لماسون حرية التجول والتدخل وبرهن على ذلك بأن طلب من نوابه وكافة وزرائه وكبار المسئولين الرئيسيين تزويد ماسون بتقارير شاملة وافية عن شئون البلاد وأوضاعها .. وفي يونيو عام ١٩٦٢ عاد ماسون إلى واشنطن ليخبر الرئيس كنيدي أنه لم يعثر على خطأ في تصرفات ناصر الرئيسية وأنه ليس لديه ما ينتقده أو يجعله هدف نقاش وجدال . لقد أقنعه ناصر بأن كل تصرفاته التي كانت الولايات المتحدة تنكرها عليه ليست سوى مخارج منطقية يضطر ماسون نفسه إلى سلوكها منطقيّاً لو كان في منصب ناصر . لذا ظل تفكير المختصين بشئون الشرق الأوسط في كل من البيت الأبيض ووزارة الخارجية في واشنطن وديّاً تجاه ناصر طوال عهد ولاية الرئيس كنيدي . وبقيت نظراتهم له مليئة بالعطف نحوه كما أفلحوا في مقاومة ضغط أوساط رجال الأعمال الأمريكيين وتحديهم (ومن لف لفهم من رجال الكونجرس) فقد كانت شكواهم من خطابات ناصر العامة التي يهاجم فيها الأمريكيين ويمتدح فيها السوفييت مستمرة ، وكذلك كان قلقهم من مغامراته السياسية (منذ أزمة لبنان) التي أمسوا على علم تام بها . وأدرك ناصر هذا ، وبقي كله أملاً أن تتمخض زيارة ماسون عن نظرات عنف مثمرة تمتد إلى تأييد ملموس وزيادة ملحوظة في المساعدات دون أن تتورط السلطة التنفيذية في حكومة الولايات المتحدة في مآذق تضعها في صراع وجهاً لوجه مع سلطات الكونجرس".[١]

([١]) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ٢٩٨ - ٣٠٠ بتصرف .

لقد أعجب عبد الناصر بكيندي وتبادلا العديد من الرسائل المهذبة والتي تدل على مشاعر الاحترام المتبادل، وأرسلت مصر المئات من مبعوثيها للدراسة بالولايات المتحدة بدلاً من روسيا، كما كتب كيندي لعبد الناصر أن أمريكا مستعدة للمشاركة في إيجاد حل لمشكلة فلسطين بما فيها مشكلة اللاجئين، ولكن التحسن لم يدم طويلاً. فقد تتابعت الأحداث الجسام التي اضطرت كلاً من الرجلين للانعطاف في طرق مختلفة. فجاءت أزمة الصواريخ الكوبية [1] وأحداث الكونغو [2] ، ليقف عبد الناصر موقف المعارض للسياسة الأمريكية.

وللمرة الثالثة (بعد حرب السويس ، وخلافه مع خروشوف) تواتي عبد الناصر فرصة ذهبية لإصلاح ما فسد بينه وبين الولايات المتحدة ، وإنهاء حالة الصراع الحادة بينهما ، والتي كانت تصب بالقطع في صالح إسرائيل والسوفييت ، ولكن عبد الناصر آثر أن يزج بنفسه في الحرب الباردة الدائرة بين الولايات المتحدة والسوفييت ، والانحياز للسوفييت ضد الولايات المتحدة .

فرداً على سؤال مدير تحرير جريدة "الريفولوسون" الكوبية :ما هو موقف الجمهورية العربية إذا وقع عدوان على كوبا؟

([1]) كانت الولايات المتحدة قلقة من تبني أي دولة منهج اشتراكي أو شيوعي، ولكن أن تتحالف كوبا وهي دولة من دول أمركا اللاتينية مع الاتحاد السوفييتي فهذا شيء مرفوض تماماً، ووصلت الأزمة ذروتها في ١٤ أكتوبر ١٩٦٢ عندما أظهرت صور استطلاع التقطت من طائرة التجسس الأمريكية عن وجود قواعد صواريخ سوفيتية مبنية في كوبا، وقد انتهت الأزمة بعدها بأسبوعين في ٢٨ أكتوبر عندما توصل كلا من الرئيس الأمريكي جون كندي وأمين عام الأمم المتحدة يوثانت إلى اتفاق مع السوفييت لإزالة الصواريخ الكوبية شريطة أن تتعهد الولايات المتحدة بعدم غزو كوبا والتخلص بسرية من صواريخها في تركيا .

([2]) شب خلاف بين كاسافوبو رئيس جمهورية الكونغو الموالي للاستعمار البلجيكي المؤيد من الولايات المتحدة، ولومومبا زعيم الحركة الوطنية الكونغولية الذي انتخبه الشعب رئيساً للوزراء ، أقدم كاسافوبو على إقالة لومومبا وتم قتله بعد ذلك بمعاونة الاستعمار البلجيكي وفي ١٧ يناير ١٩٦١ ، بمصرع لومومبا سقطت البلاد في دوامة الفوضى لمدة خمس سنوات .

قال عبد الناصر : الجمهورية العربية كانت وستظل دائماً تعارض أي عدوان يقع على كوبا، ولقد شرحت هذا في رسالة بعثت بها إلى "فيدل كاسترو" أثناء أزمة أبريل الماضي في كوبا ." [1]

فلم يكتف عبد الناصر بالوقوف مع الاتحاد السوفيتي المؤيد لكوبا ضد الولايات المتحدة بل كان معارضاً للرئيس كاسافوبو رئيس جمهورية الكونغو الموالي للاستعمار البلجيكي المؤيَّد من الولايات المتحدة .

يقول عبد الناصر : " إننا اليوم ننظر إلى الكونغو وننظر إلى الاستعمار وألاعيب الاستعمار، وننظر إلى أعوان الاستعمار في الكونجو.. القتلة أمثال "كازافوبو" و"تشومبى" و"كالونجى" ونقول: إن لأعوان الاستعمار نهاية، ونطالب الأمم المتحدة أن تحاسب أعوان الاستعمار على جرائم القتل التي ارتكبوها؛ وإلا فإن الشعوب كلها ستفقد ثقتها في الأمم المتحدة وفي عملها. إننا ننظر بترقب للموقف لنرى ماذا سيكون تصرف الأمم المتحدة ضد القتلة.. ضد عملاء الاستعمار، من أجل وحدة الكونغو ومن أجل استقلاله، وإننا في نفس الوقت نقول: إننا على استعداد لأن نساعد شعب الكونغو في سبيل تحقيق حريته وفى سبيل تثبيت استقلاله. " [2]

***

(١) حديث الرئيس جمال عبد الناصر إلى مدير تحرير جريدة "الريفولوسون" الكوبية ١٩٦٢/٠١/١٩. راجع خطب عبد الناصر على موقعه الرسمي على الإنترنت .

(٢) كلمة الرئيس جمال عبد الناصر من قصر الضيافة بدمشق فى العيد الثالث للجمهورية العربية المتحدة ١٩٦١/٠٢/٢٢. راجع خطب عبد الناصر على موقعه الرسمي على الإنترنت .